

انعدام التّواصل في زمن التّواصل

بقلم أدما حبيبي

تقول إحدى الزوجات وتكرر: "إنّ زوجي مصابٌ بفيروس النّكد الدائم. فصباح الخير عنده شجارٌ وتنغيصٌ بكل معانيه وأشكاله المختلفة." أما زوجها فيقول: "إن زوجتي تخنقُ النكد بسبب أو بدون سبب. وكثيراً ما تتكلم دون توقف. والمدهش أنّها لا تتعب ولا تملّ من كثرة الكلام وتكراره مرات ومرات. فهل لهذه الحالة من علاج؟ "

يتابع الصحفي كاتب هذا المقال تحت عنوان: **مَنْ الظالم ومن المظلوم** الذي أدرج في إحدى الصحف العربية ليقول: لهذه الحالة من الانتقاد والانتقاد المضاد نكاتها الطريفة ومنها أنّ رجلاً قال لصديقه: مرّ عليّ ستة أشهر لم أتحدث فيها إلى زوجتي. فأجابته صديقه: بسيطة كل الأزواج يتعرّضون إلى مشادات وشجارات. فقال الرجل: لا ، لا يوجد بيننا شجار ولكنني لا أستطيع التّكلم معها لأنّنا لا نتوقف عن الكلام وأنا لا أريد أن أقطعها.....

كان التّواصل بين الرجل والمرأة، يكمل الصحفي مقاله ، في غابر الأيام والزمان - وقبل اختراع التلفزيون وتحوّل الحياة ومشاغليها وهمومها العصرية- معتمداً على ما يسمى بـ"حديث الوسادة" حيث كانا يُلقيان برأسيهما على الوسادة قبل النوم فيجدان متنسعاً من الوقت كي يتسامرا ويتحدّثا بحب وسعادة أو يتحاورا حول العائلة والمحيط والحياة وكل ما يخطر على بال. ولكن مع مرور الأيام وطرق الحياة العصرية خسر الزوجان حديث الوسادة هذا وبات الحديث بينهما متأثراً بظروف الحياة والدوام. ويقول أحد الأزواج في هذا الشأن: "إن زوجتي تحاول أن تستغلّ كل فرصة تجديني حولها لصخّ ملاحظاتها ونصائحها. وبات حديثها مليئاً بالغمز والإشارات ذات الدلالات حين تتحدث عن التّداول والهناء والاستقرار العاطفي الذي تتمتع به صديقتها."

أما زوجةٌ أخرى فنصيفُ زوجها بأنه جلفٌ، أي فظّ. ولا يُغرقها بكلام العواطف أو يُشعرها بالأحاسيس الفيضة وأن هذه الأحاسيس هي غذاء للمرأة مثل الأكل تماما.

وهنا يختم ليقول: وتبقى المواجهات والمفارقات قائمة بين الزوج والزوجة، لكنها لم تكن مسبقاً سبباً للوصول إلى الطلاق حتى ومهما استنفحت المشكلة. أما اليوم فتشير الدراسات إلى أنّ ما يقارب ثمانين في المئة من حالات الطلاق تنجم عن شعور المرأة بانعدام التّواصل العاطفي الناجم أساساً عن فشل الرجل في التعبير عن عواطفه وبالتالي انعدام الحوار وفق الأسس التي تروق للمرأة. ويقول باحث اجتماعي ألماني في هذا الشأن: إنّ الدفاء العاطفي بين الزوجين يزيد من قدرة العقل لدى كلّ منهما ويعزز ذكاءهما بصورة ملحوظة. واستمرار تلك الحالة من التّواصل الحميم لفترة طويلة تزيد من تحصيل كلا الزوجين في مقياس الذكاء

معتبراً تلك النتائج بمثابة رسالة مفتوحة لكل زوجين بأنّ عليهما أن يزيدا من حميميتهما ونشاطهما العاطفي. وهنا يختم الكاتب مقاله: أطلب من السيدات والسادة الحكم من الظالم ومن المظلوم؟ المرأة أم الرجل؟

إذن من الظالم ومن المظلوم؟ هذا سؤال يحار في إجابته أي قارئ موضوعي. لأنّ القصة ليست هو أو هي، القصة وما فيها هي أنّ التواصل قد تأثر هو الآخر بنمط الحياة العصرية التي نعيش في دائرة إيقاعها السريع والمريع. وبالرغم من كثرة وسائل الاتصال وتعدّدها، فإنّ التواصل بات نادراً وأصبح في كثير من الأحيان جامداً جموداً وسائله الآلية المنتشرة بشكل واسع. فطغى على تواصلنا كأفراد، وكعائلات وكجماعات، جموداً ما بعده جمود، هو جمود الآلة والإلكترونيات التي حلت محلّ الكلمة اللطيفة، والنظرة الرقيقة، واللمسة الحانية. فصرنا نتحرّك نحن أيضاً كآلات نسبة للعصر. وإذا حدث وانتقدت الزوجة هذا الوضع موجّهة كلامها لزوجها، فتراها ينظر إليها إمّا من وراء الصحيفة التي في يده، أو مشيراً لها ببنايه بالصمت لأنه يراقب أخبار التلفاز والفضائيات، أو لأنه يجلس وراء الكمبيوتر يتحدث مع آخر عبر الضغط على أزرارٍ تنقل كلماته المكتوبة إلى شخص على الطرف الآخر في جلسات مطولة.

فأين ذهب بالحق هذا التواصل الحميمي الذي يجلس فيه أفراد العائلة يتحدثون بعضهم إلى بعض من دون أن يزعجهم صوت أو صورة الرائي؟ أو حتى من دون أن يرسلوا رسائل عن طريق الهاتف الخليوي؟! أين ذهب هذا الوقت الثمين الذي كانت تجتمع فيه العائلة وتناقش معاً موضوعاً معيناً يهّمها؟ أو مشكلة ما تواجهها؟ الكلام وسيلة من وسائل التعبير منحها الله الخالق العظيم لنا نحن البشر وميّرنا بها عن سائر المخلوقات. لذلك فمن غير الممكن أن تحلّ محلّه أية وسيلة أخرى وإلا لغدونا آلات متحركة. أعرف صديقاً مقرباً لنا قام بفصل هوائي التلفزيون من جذوره، كيما يقضي الوقت مع زوجته وأولاده في كل ليلة يعود فيها من عمله. وكان أن شبّ الأولاد الأربعة على علاقة وطيدة ببعضهم ببعض وسادت الشركة الودية بين الأب والأم وكذا الأولاد. يبدو الأمر غريباً بعض الشيء لكن إذا اقتضت الحاجة إلى ذلك فلما لا؟ وإذا كان العائق هو التلفزيون فلا بدّ من وضع حدّ له. ليس الحل هو باللجوء إلى السكوت والصمت، أو "بالنق" والثرثرة. كلا، فليس هذا هو المقصود من حديثنا الأصلي عن التواصل. أريد أن أعود هنا إلى سفر التكوين في الكتاب المقدس، أي سفر التأسيس حين خلق الربّ الإله أبانا آدم ووضع في جنة عدن. وقال الربّ الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره. وجبل الربّ الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها.. وأما نفسه فلم يجد معيناً نظيره.... وبنى الربّ الإله الضلع التي أخذها من آدم وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً."

(تك ٢ : ١٨-٢٤)

إذن تبيّن الله الخالق بأنه ليس جيداً أن يكون آدم وحده، كما تبين لآدم نفسه هذه الحقيقة إذ لم يجد من بين كل المخلوقات معيناً نظيره. عندها أتاه الله بالمرأة التي بناها من ضلعه. فعبر آدم عن فرحته بها لأنها عظم منه ولحم منه. هي النظر الذي يستأنس به فيذهب عنه وحشته. هي المعين والعاقد هي الشريك الذي يلازمه فيصبح جزءاً منه ويصبح هو جزءاً منها. لقد عمل الله الإنسان بشقيّه على صورته كشبهه، في العقل والإدراك والإبداع والتواصل، إذ كانا عند هبوب ريح النهار يسمع آدم وحواء صوت الله ماشياً في الجنة. وهذا دليل على شركته المتواصلة معهما. إن الله الخالق هو بكر أي مُبدئ العلاقات ومنشؤها، لهذا لم يُرد أن يعيش الإنسان بعد العصيان ، في بُعدٍ عنه. فشاعت محبته العظيمة أن يدبر خطة لكي يستعيد هذه الشركة المقطوعة بينه وبين الإنسان . ولهذا تنازل بنفسه في هيئة البشر، وولد المخلص والفادي يسوع المسيح من العذراء المباركة لكي يتمّ فداء البشرية ويعيد الصلة إلى ما كانت عليه سابقاً قبل السقوط. وهذا ما تمّ فعلاً حين مات على الصليب بديلاً عن الإنسان إذ حمل بنفسه عقاب خطايانا وعصياننا. لكنه قام من بين الأموات ليمنحنا النصر والغلبة على الخطية وليعطينا رجاء أكيداً بالحياة الأبدية. **نعم الإله الخالق العظيم هو منشئ لغة التواصل والمؤسس الأول للعلاقات.** فهل ينتبه الإنسان إلى دعوته لإقامة شركة حية معه من جديد؟ أم يبقى غير مكترث غائصاً في عالم الجمود بعيداً عن العلاقة الحية والشركة الصحيحة بينه وبين إلهه؟ **وإذا كان التواصل بين البشر وخاصةً بين أفراد العائلة الواحدة مهماً لتناغم الحياة وانسجامها، فكيف هو الحال بالنسبة للتواصل بين الله الخالق و الإنسان بشقيه الذي هو تاج مخلوقاته؟**